فكاهات

رواية

حكمة الوالدين (١)

كان في مدينة باريز رجلٌ واسع الثروة بسيط الجاه يقال لهُ المسيو ريشار موصوفٌ بحصافة العقل وثقوب الذهن وأصالة الرأي وبُعد المدارك وقد عركتهُ الحوادث وسبكتهُ التجارب حتى قتل الدهر خبراً وعرف الايام بطناً وظهرًا . وكانت لهُ زوجةٌ لا تحطّ عنهُ حكمةً ورصانةً يقال لها جوليا قد جمعت بين شهامة اللبّ ومكارم الاخلاق والصبر وطول الاناة وكان زوجها يجلّها ويكرّمها لما زُيّنت بهِ من المواهب الطبيعية ومحاسن الآداب فعاشا عيشةً راضية تمثلت فيها سعادة الحياة ورغد معيشة الزوجين بالألفة والسلام . وكانت لهما بنتٌ بارعة الجمال يقال لها لويزا قد احسنا تربيتها وتهذيبها فنشأت على الفضائل ومحامد الخلال وتلقنت العلوم في افضل المدارس فاحكمت كثيرًا من المعارف والفنون حتى قرنت الجمال بالكمال واصبحت فتنةً للالباب وبهجةً للناظرين . ولما اتمّت التحصيل وكان لها من العمر ثماني عشرة سنةً خرجت من المدرسة فاستقرّت في بيت ابيها وعُني والداها بتخريجها في فنون المعاشرة وآداب المجتمع فكانا يعرّفانها بزوّار المنزل

(١) بقلم موسى افندي صيدح

فتجلس اليهم وتحادثهم ولم يمضِ الا قليلٌ حتى اصبحت زينة تلك المجتمعات ومحل اعجاب كل من رآها واختبر عقلها وادبها مما زاد ابويها سرورًا بها وزادها نشاطاً وانبساطاً فكانت لا تُرى الا طَرِبةً مسرورةً ولا يُسمَع في اطراف المنزل الا تغريدها العذب ونغماتها الشجية ولم يكن لوالديها من امنيةٍ الا ان يقعا لها على كفؤٍ من الازواج يليق بها ويكفل سعادة آتيها

وكان فيمن يزور اباها فتى في الخامسة والعشرين من السنّ طلق المحيّا رقيق الاخلاق حسن المحاضرة يقال لهُ المسيو موريس من المستخدمين في وزارة المالية وكان قد قُدّم الى البيت على يد احد الاصدقآء ثم جعل بعد ذلك يتردد حيناً بعد حين وقد كلف بحب الفتاة وطمع في وفرة غناها لما يعلم من اتساع ثروة ابيها فجعل يجهد في التقرّب من قلبها بكل ما استطاع من اساليب الرقة ولطف المغازلة حتى مالت اليهِ واستولى على ازمّة هواها وصار يجلس اليها في اكثر الاحيان فيتحادثان ويتغازلان . ولما تمكن الانس بينهما ووثق بحبها وانعطافها كاشفها برغبتهِ في الاقتران بها فاظهرت لهُ الاجابة الى ذلك لما سبق من مكانهِ في قلبها فكاد يطير فرحاً واستبشاراً وايقن بالحصول على ما يتمناهُ من السعادة وتمثل لهُ المستقبل باسماً محفوفاً بالآلآء المجد والغبطة . فسكر بنشوة هذه الاماني وحدثتهُ نفسهُ ان يذهب ويطلبها من ابيها فاسرع وفعل فلما سمع ابوها منهُ ذلك وهو ما لم يكن يترقّب ان يصدر منهُ بالقياس الى انحطاط مقامهِ عن منزلة البيت اخذتهُ أنفةٌ شديدة وصدّهُ صدًّا جافياً . فاخذ يتوسل اليهِ بكل ما استطاع من الضراعة فلم يغنِ ذلك عنهُ شيئاً وانصرف وهو يتعثر باذيال الخيبة وقد

اضمحلّت آمالهُ كما يضمحلّ سحاب الصيف في افق السمآء وتقوّضت صروح امانيهِ وظهرت لهُ تماثيل رجآئهِ في اقبح صور اليأس والقنوط. ولما بلغ الى منزلهِ كتب الى لويزا يعلمها بما كان ويشكو اليها فرط لوعتهِ وما اخذهُ من المضّ والجزع عندما ايقن باليأس من الاقتران بها فلم تكن لويزا باقلّ منهُ كمداً واكتئاباً عندما بلغتها رقعتهُ لما كان لها من شديد التعلق بهِ والميل اليهِ وما كانت تبني على اقترانها بهِ من آمال الغبطة والنعيم فاستولى عليها الانقباض والقنوط وتبدل صفوها بالكدر وبدت على ملامحها علائم الغمّ والوحشة فانكسف ذلك الجمال بعد اشراقهِ وتبدلت تلك البهجة بالاكفهرار والعبوس

وشعرت والدتها بتغير حال ابنتها وعرفت سببهُ لانها لم تكن تجهل تعلقها بموريس ولا تمانع اقترانها بهِ لما كانت ترجو لها من الغبطة في ذلك الاقتران بيد انها لم ترَ ان تفاتح زوجها بهذا الحديث لما تعلم من شدة شكيمتهِ وفرط تصلبهِ في رأيهِ وخشيت ان يكون ذلك سبب تنغيص لعيشتهم البيتية فلزمت الصمت اضطرارًا وتربصت ان تأتي الايام بحلٍّ لذلك المشكل

واتفق في اضعاف ذلك ان رجلاً من ذوي الحسب الرفيع والثروة الطائلة يقال لهُ الكُنت رولان كان قد رأى لويزا فوقعت من قلبهِ موقعاً جليلاً وأُعجب بما شاهد من جمالها وسمع من صفاتها فوافى اباها خاطباً فسرّ ابوها بذلك اعظم سرورٍ لما يعلم من محاسن صفات الرجل وكرم اصلهِ ووفرة غناهُ الا انهُ لم يحبّ ان يقطع معهُ قولاً الا بعدما يقف على رضاها فسأل

الكنت ان يمهلهُ في ذلك اياماً ثم جآء ابنتهُ وعرض عليها الامر فرفضت فراجعها بكل وسيلةٍ للاقناع فلم تزد الا عناداً واصرارًا على الاباء فلجأ اخيراً الى العنف وتهددها بكل ويلٍ اذا لم تجب الى طاعتهِ في اجلٍ ضربهُ لها وانصرف وقد بلغ منهُ الحنق والغيظ كل مبلغ وتنغصت ايامهم بعد ذلك بما شابها من النكد والنزاع بين لويزا وابيها. اما جوليا فكان دأبها المراوحة بين تسكين غضب زوجها وترويض اخلاق ابنتها بما وسعها من الجهد وما أُوتيت من الحكمة وهكذا اصبح البيت في قلقٍ دائم وخيّم عليهِ الغمّ والكمد وانقلبت تلك المسرّات الى همومٍ وقعها مرّ وعنآؤها مستمرّ

ولما كانت الليلة التي وُعد الكُنت رولان ان يبلّغ الجواب في غدها باتت جوليا في تلك الليلة قلقة الخاطر مضطربة البال لحلول الموعد الذي ضربهُ زوجها للكنت وبقآء لويزا على اصرارها وامتناعها من موافقة ابيها بحيث يُضطرّ الى اجابتهِ بالرفض فكثرت هواجسها واحاطت بها جيوش الهموم ولم يأخذها نومٌ ولا قرار. ولما تنصف الليل وقد غلب عليها الارَق وضيق الصدر نهضت من سريرها وفتحت باب غرفتها فرأت في غرفة زوجها نورًا فعرفت انهُ استيقظ في تلك الساعة فدخلت عليهِ فوجدتهُ جالساً ورآء مائدتهِ مكبًّا على المطالعة يحاول بها طرد ضجرهِ ومدافعة بلبالهِ. فنظر اليها وقال لها ما اتى بكِ في مثل هذهِ الساعة ألعلّكِ آتية لتسكّني غضبي وترضّيني عن وقاحة ابنتكِ على حسب العادة فاعلمي ان غيظي منها قد بلغ حدّهُ فاذا ذكرتُ اسمها ارتجفت شفتاي واذا تمثل لي اصرارها وعصيانها انتفض كل عرقٍ مني لاني فضلاً عن تمرُّدها ومخالفتها لرأيي اراها ترمي

بتفسها في مهواة الشقآء وتضيع سعادة مستقبلها في سبيل الحماقة والطيش .
فقالت لقد عهدتك حكيماً حازماً كثير التروّي والأناة في كل اعمالك فلا يُطيشنّ هذا الحادث حلمك ولا يستولينّ عليك الغضب والحدّة ولقد افرغنا كل ما في وسعنا من اساليب الملاينة وطرق المخاشنة لاقناعها فلم يكن الى ذلك من سبيل فهل يحسن بعد هذا ان نُكرِه ابنتنا على التزوّج بمن لا تحبّهُ ولا يطيب لها معهُ عيش أوَلا ترى اننا بذلك نعرّضها لشقآءٍ دائم ونكون سبباً في تنغيص حياتها بضروب النكد والقلاقل وقد نكون جالبين عليها وعلى انفسنا ما لا تُحمَد عقباهُ . ثم اذكر ألم يكن زواجنا مسبوقاً بالرضى والاختيار وتبادل الحبّ من الجانبين فلمَ لا يكون زواج ابنتنا كذلك وبأيّ حقٍّ نحرمها الاقتران بمن تميل اليهِ وتعيش معهُ عيشةً راضيةً ولا سيما ان موريس فتى حلو الشمائل رقيق الطباع مهذب الخصال خليقٌ بان تكون ابنتنا معه في حالٍ يسرّها ولو لم يكن غنيًّا . فقال ريشار ولكن اعلمي ياجوليا ان موريس لم يخطب اليّ ابنتي الا رغبةً فيما يعلمهُ من ثروتها الطائلة فهو في الحقيقة مغرمٌ بصندوق اموالي لا بجمالها وانما يروم الاستيلآء على جواهري واملاكي لا الاستيلآء على يدها واما الكنت فانهُ رجلٌ غنيٌّ لم يغرّهُ الطمع في المال ولكنهُ يودّ الحصول على لويزا لاعجابهِ بجمالها وادبها وانما طلبها عن حبٍّ صحيح وميلٍ مجرَّد فهو الحريّ بان يقدُر مواهبها حقّ قدرها والذي تحظى عندهُ بالسعادة وهنآءة العيش . قالت لا يبعد ان تكون مصيباً في ذلك وما انا بالتي تغالطك فيهِ ولكنّ صرفها الى هذه الجهة لا يكون بالتهديد والتضييق على اميالها بل ربما كان ذلك مما يزيدها نفاراً

واصراراً فالاولى ان نتدبر الامر بالاناة والصبر ونسلك معها سبيل اللطف والملاينة لاقناعها بما هو خيرٌ لها وارى ان تكل هذا الامر اليّ اتصرف فيهِ بما يُفتَح بهِ عليَّ ولعلي لا انتهي الا الى ما تحبّ . قال دونكِ فافعلي ما شئتِ فخرجت من عندهِ وعادت الى غرفتها

وما كادت جوليا تستقرّ في غرفتها حتى رأت لويزا داخلةً عليها بملابسها المعتادة وعليها علائم القلق والارتباك فاستغربت منها جوليا ذلك وقالت ما الذي جآء بكِ في مثل هذه الساعة يالويزا وما بالكِ لم تنامي بعد . فاستخرطت في البكآء ووقعت على قدمي والدتها وقالت ارحميني يا والدتي . قالت وما عرض لكِ الآن يا ولدي . قالت اغتفري ذنبي فاني لم اقدم على ما نويت فعلهُ الا لقساوة والدي فكوني انتِ أرأف بي منهُ واني منطرحةٌ بين يديكِ وغير صادرةٍ الا عن رضاكِ . قالت ويحكِ وما ذاك . فاخرجت صحيفةً ودفعتها الى والدتها وقالت خذي واقرئي ثم اجهشت بالبكآء . وكانت الصحيفة رسالةً من موريس يواعدها فيها ان يأتيها الساعة الواحدة بعد منتصف تلك الليلة ويقول لها لتنتظرهُ في تلك الساعة في حديقة القصر ليأخذها ويفرّ بها . فلما قرأت جوليا الرسالة جعلت ترتعد من الغضب وتقول يا للنذالة أبلغ من وقاحة الوغد انهُ يريد اختطاف ابنتي . ثم التفتت الى لويزا وقالت لها اذن كنتِ تنوين ان تفارقي والديكِ على هذه الصورة المعيبة وتخلعي على اللذين ربّياكِ هذا العار . قالت عفوًا يا والدتي فان هذا هو الامر الذي استوقفني عن عزمي واقامني في الحيرة والارتباك بين ان اجيب داعي حبي لموريس او ارعى شرف والديَّ وجميلها ولذلك لم اجد الا ان التجئ اليكِ

واستغيث برحمتكِ وحنوّكِ . قالت لقد احسنتِ بكشف سرّكِ لي فانكِ حديثة السن قليلة الاختبار فدعيني اتولى عنكِ الوصول الى نهاية هذا الامر . وكانت الساعة قد اتت فاخذت جوليا بيد ابنتها وقالت لها هلمي بنا ننزل الى الحديقة ونلاقيهِ هناك . قالت ولكن يا أُمّاه . . . قالت هذا ليس من شأنكِ فاتبعيني ثم نزلتا الى الحديقة ولم تلبثا الا قليلاً حتى رأتا شبحاً يتسلل بين الاشجار وهو يقترب منهما . فاشارت جوليا الى لويزا ان تتوارى قليلاً بحيث تكون منهما بمرأى ومسمع ففعلت ودنا الشبح حتى وقف امام جوليا فاسرعت بعودٍ من الثقاب واشعلتهُ فلما لمح موريس هيئتها ارتدّ الى الورآء مذعوراً وقد استولى عليهِ الدهش والهلع . فقالت لهُ سكّن روعك يا مسيو موريس ولا تجزع لشيء فان لويزا قد كاشفتني بمكنون سرّها وعرّفتني كل ما دار بينكما فاجلس لنتحدث قليلاً . فجلسا على مقعدٍ هناك وابتدأت جوليا بالكلام فقالت لهُ اني اعلم يا موريس بمحبتك لابنتي ومحبتها لك ولست استغرب مجيئك الآن لتأخذها خُلسةً بعد ان ردّك ابوها ومنعها منك ولستَ اول من فعل مثل ذلك في مثل هذه الحال واقول لك اني لا امانع اقترانك بها لانني اعلم انك شابٌّ لطيف الذات ممدوح الصفات وانها ستعيش معك عيشةً هنيئة . قال ما اغزر حكمتكِ يا مولاتي واوفر حلمكِ وان لساني ليعجز عن وفآء شكركِ على ما ابديتهِ من الجميل وكرم الاخلاق لكن أحقًّا لا تمانعين . قالت لا ولكني قبل ان اخوض معك في هذا الحديث رأيت ان اطلعك على امرٍ لا بدّ منهُ مما يتعلق بهذا القران حتى تكون على بينةٍ مما انت مُقدِمٌ عليهِ وهو امرٌ لم اكن لا كاشفك بهِ

لولا ان الحال الجأتني ان افشيهُ اليك وارجو ان تكتمهُ علينا لانهُ الى الآن لا يزال مستوراً . قال تكلمي فكلي مسامع وأعدكِ وعد صادقٍ اني لا ابوح بحرفٍ مما تقولين . قالت تعلم يا موريس ان زوجي ربّ مصرف وان اصحاب هذه الحرفة معرَّضون كلّ ساعةٍ لسقوط ماليتهم يتهدَّدهم الخراب من حيث يعلمون ولا يعلمون ولست اخفي عنك ان هذا ما وقع لنا لان ما كان آخراً من نزول اسعار الاسهم قد جلب علينا خسائر جمة استغرقت كل ما نملك ولم يبقَ لنا ما يقوم بضروريات معاشنا فهذا القصر الذي تراهُ وهذه الارض التي تطأها والثروة الواسعة التي تسمع بها كل ذلك لم يعد ملكاً لنا ولم يبقَ لنا منهُ شيءٌ وهذا ما دعا زوجي ان يرفض طلبك ويمنع زواج لويزا وقد كتمنا الامر عن لويزا فهي الى الآن لم تعلم بشيءٍ منهُ . قال احقٌّ ما تقولين يا سيدتي وقد وافاكم هذا الخراب الفجآئي قالت نعم وانهُ لخرابٌ عظيم يا موريس فقد امسينا فقرآء وامسى من يتزوج لويزا يتزوج فتاةً فقيرة لا تملك شيئاً . وقد اطلعتك على حقيقة الحالة لتراجع رأيك في الامر حتى اذا كنت لا تزال على عزمك فهيّا بنا الآن لاتمام العقد بحضوري فان لويزا بالانتظار وانا ارافقكما الى المنزل ولا داعي لأن نخرج خُلسةً كما كنت تنوي ان تفعل بل نخرج جهاراً ونحن على كمال الطمأنينة لان البواب اذا رآني لا يتأخر عن ان يفتح الابواب

فلما فرغت من حديثها اطرق موريس الى الارض يتفكر وقد ايقن بصحة جميع ما ذكرتهُ جوليا وتحققت لهُ خيبة املهِ من الحصول على الثروة التي كان يرجوها . فقالت لهُ جوليا ما لك يا موريس قم بنا لنذهب فقال

اني اشكركِ يا سيدتي على كرم اخلاقكِ وعظيم ما بذلتِ لاجلي فانكِ سمحتِ باقتراني بلويزا وعزمتِ ان تنابذي زوجكِ وتتعرضي لسخطهِ وانتقامهِ وانا لا احبّ ان احملكِ كل هذا من اجلي فارجو ان تأذني لي في الانصراف وقام لساعتهِ وانسلّ من بين الاشجار عائداً من حيث اتى. فقهقهت جوليا ضحكاً وقالت للويزا أرأيتِ مبلغ حبهِ لكِ وعلمتِ يقيناً انهُ انما يرغب في اموالكِ لا فيكِ فانبذي من قلبكِ حبّ هذا المتملق المخادع وأيقني بنصح مشورة ابيكِ وسموّ حكمتهِ وصدق رغبتهِ في ابتغآء راحتكِ وسعادة حياتكِ. فالقت لويزا بنفسها على عنق والدتها ويديها تقبلها وتستغفرها عما فرط منها من الجهل والغرور وقد ايقنت بزيفها وشعرت بخطآئها العظيم في تسرعها بتسليم قلبها الى من لم تختبر طويتهُ وندمت على ما كان منها من مخالفة والدها وعدم ثقتها بحسن قصدهِ وطلبت من والدتها ان تستغفرهُ لها وتستجلب رضاهُ عنها. ثم صعدتا الى المنزل فذهبت جوليا واخبرت زوجها باعتدال لويزا في افكارها ورجوعها عن غيها وذلك دون ان تطلعهُ على شيء مما كان فسرّ الوالد كل السرور وانفرجت كربتهُ ونام الجميع بدعةٍ وسلام وقد زال ما كان يتهدد ذلك البيت من النكد والشقاق

ولما كان الصباح اقبل الكنت رولان للموعد فاجيب طلبهُ بالقبول وبعد ايام تمّ عقد القران وقضت لويزا معهُ حياةً هنيئةً لا يشوبها كدر ولا ينغصها نكد وكان الفضل كلهُ في ذلك لحزم والدها وحكمة والدتها

التنجيم

قال ابن خلدون هذه الصناعة يزعم اصحابها انهم يعرفون الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قِبَل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولّدات العنصرية منفردةً ومجتمعةً فتكون لذلك اوضاع الافلاك والكواكب دالّةً على ما سيحدث من نوعٍ نوعٍ من انواع الكائنات الكلية والشخصية. قال فالمتقدمون منهم يرون ان معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو امرٌ تقصر الاعمار عن تحصيلهِ اذ التجربة انما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم او الظن وادوار الكواكب منها ما يحتاج تكرارهُ الى آمادٍ واحقابٍ متطاولة .. واما بطلميوس ومن تبعهُ من المتأخرين فيرون ان دلالة الكواكب على ذلك دلالةٌ طبيعية من قِبَل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لان فعل النيّرين واثرهما في العنصريات ظاهرٌ لا يسع احدًا جحدهُ مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وامزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك .. ثم قال (اي بطلميوس) ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان الاولى التقليد .. والثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحدٍ منها الى النيّر الاعظم الذي عرفنا طبيعتهُ واثرهُ معرفةً ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوّتهِ ومزاجهِ فتُعرَف موافقتهُ لهُ في الطبيعة او ينقص منها فتُعرَف مضادّتهُ ثم اذا عرفنا قواها مفردةً عرفناها مركبةً وذلك عند تناظرها باشكال التثليث والتربيع وغيرهما. انتهى المقصود من هذا الفصل ملخصاً ومنهُ يتبين ان البنآء في هذه الصناعة